



وداعاً دي ميستورا... وداعاً القرار 2254... هكذا نطق وليد المعلم باسم سيده بشار الأسد. ولا جديد في الأمر، فالنظام الذي أفشل مهمات مبعوثين أمميين ثلاثة لم يرد منذ البداية حلًّا سياسياً، ومثله النظام الإيراني الذي لا يزال يستثمر في المحنّة السورية وينجز مخططاته. أما حليفهما الروسي فكان حلّه المفضل يستند على الدوام إلى وجود الأسد ونظامه. وحين تخطّوا دمشق نحو عرقلة تشكيل اللجنة الدستورية أو تجميده، فإنها تنفذ أجندته خفيةً لموسكو أو توفر لها ورقة مساومة مع الدول الغربية.

أكثر من سبب لهذه الخطوة: أولاً، انتهت مهمة ستيفان دي ميستورا ولم يعد مفيدةً التعاون معه، وكانت موسكو استغلّت سوء إدارته كما استغلّت تقلبات السياسة الأميركيّة في الإدارتين المتعاقبتين لضرب مفاوضات جنيف وإفراج القرار 2254 من أي مضمون يشير إلى «الانتقال السياسي».

ثانياً، قدر النظام أنها اللحظة المناسبة للتخلّص من إشراف الأمم المتحدة على إنهاء الأزمة السورية، وأن فترة اختيار مبعوث أممي جديد وجهازه للعمل يجب أن تستغلّ لتغيير الواقع والمعطيات التي يراد للحل السياسي أن يستند إليها. ثالثاً، بعدما قال الوزير المعلم أن اللجنة «شأن سيادي» وأشار إلى أن دول «مسار آستانة» الثلاث يمكن أن تتفق على اللائحة الثالثة لأعضاء اللجنة الدستورية (تضم مستقلين ونشطاء لمجتمع المدني) وتقدمها إلى الأمم المتحدة، أي أن «السيادة»

مصالحة مع تلك الدول، خصوصاً إذا رضخت تركيا لتوافق روسيا وإيران. وهذا يبطن نية لم تخلّ عنها لطاحنة «مسار جنيف» نهائياً والاستفراد بفرض عناصر الحل.

يبرمג النظام تمنياته لتنسق مع أهداف روسية وإيرانية معلنـة أو مبيـنة. لذلك، يعوـل في مسألـة الدستور على تفاهمـات خاصـة مع حليفـيه، ولا يزال يفضل إبقاء دستور عام 2012 مع بعض التعديلـات، أما إذا أـريد للجنة الدستوريـة أن تـنكـب على كتابـة دستور جـديد فإنـ النظام يـسعـي إلى الحصول على ثـلـثـيـةـ الجـنةـ (لـائـتهـ ولـائـةـ المـسـتـقـلـيـنـ) وـمنـ المـعـرـوفـ أنـ لـائـةـ المـعـارـضـةـ مـخـتـرـقـةـ منـ جـانـبـ «ـمـنـصـةـ مـوـسـكـوـ»ـ وـبعـضـ «ـمـنـصـةـ الـقـاهـرـةـ»ـ. كانتـ مـوـسـكـوـ استـطـاعـتـ التـروـيجـ لـلـتـفاـوضـ عـلـىـ الدـسـتـورـ باـعـتـارـهـ تـفاـوضـاـ علىـ «ـاـنـتـقـالـ سـيـاسـيـ»ـ عـبـرـ اـنـتـخـابـاتـ يـمـكـنـ الأـسـدـ التـرـشـحـ فـيـهاـ، وـهـذـاـ ماـ قـدـمـ غالـبـاـ بـصـيـفـةـ أـنـ «ـمـصـيـرـ الأـسـدـ مـرـتـبـطـ بـإـرـادـةـ الـشـعـبـ السـوـرـيـ»ـ، لـكـنـ المـتـعـارـفـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ المـبـدـأـ كـانـ دـائـمـاـ مـطـاـطاـ وـغـامـضاـ أـوـ مـجـرـدـ مـخـرـجـ لـفـظـيـ لـثـلـاـ يـقـالـ أـنـ مـوـاـقـفـ الـأـطـرـافـ مـتـبـاعـةـ، لـذـاـ تـبـنـتـ الـقـمـةـ الـرـبـاعـيـةـ الـأـخـيـرـةـ فـيـ إـسـطـنـبـولـ. أـمـاـ العـقـدـةـ الـأـبـرـزـ فـيـ كـتـابـةـ الدـسـتـورـ فـتـعـلـقـ بـصـلـاحـيـاتـ الرـئـيـسـ وـاقـتـرـاحـ تـقـلـيـصـهـاـ وـنـقـلـ مـعـظـمـهـاـ إـلـىـ رـئـيـسـ الـحـكـوـمـةـ، وـبـدـهـيـ أـنـ النـظـامـ يـرـفـضـ تـعـدـيـلـاـ كـهـذـاـ، كـذـلـكـ الرـوـسـ وـإـلـيـرـانـيـونـ، مـاـ يـفـسـرـ الضـغـطـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ الـلـثـلـيـنـ وـأـكـثـرـ. وـيـلـفـتـ كـثـرـ مـنـ الـخـبـرـاءـ إـلـىـ أـنـ الصـوـغـ الـعـائـمـ لـلـصـلـاحـيـاتـ الرـئـيـسـيـةـ أـفـسـدـ طـرـيـقـ تـطـبـيقـهـ، وـقـدـ أـدـىـ النـمـطـ السـلـطـوـيـ الـذـيـ كـرـسـهـ نـظـامـ الأـسـدـ الـأـبـ ثـمـ الـابـنـ إـلـىـ اـسـتـحـواـزـ حـاـكـمـ فـرـدـ عـلـىـ كـلـ الصـلـاحـيـاتـ وـالـتـصـرـفـ بـهـاـ وـفـقـاـ لـمـفـاهـيمـ وـمـزـاجـهـ الـأـسـتـبـدـارـيـ.

كـانـتـ رـدـودـ الـفـعـلـ الـدـوـلـيـةـ عـلـىـ رـفـضـ النـظـامـ أـيـ دورـ لـلـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ فـيـ تـشـكـيلـ الـلـجـنةـ الدـسـتـورـيـةـ ضـعـيفـةـ وـشـكـلـيـةـ، لـكـنـهاـ اـنـطـوـتـ عـلـىـ أـمـرـيـنـ:ـ أـولـهـماـ،ـ إـدـرـاكـ الـجـمـيعـ أـنـ تـفـاهـمـ الـدـوـلـ الـمـعـنـيـةـ،ـ لـاـ سـيـماـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـرـوـسـيـاـ هـوـ مـاـ سـيـحـكـ عـمـلـ الـلـجـنةـ الدـسـتـورـيـةـ أـيـاـ تـكـنـ تـشـكـيلـهـاـ،ـ فـهـيـ أـصـبـحـتـ مـنـطـلـقـ الـحـلـ السـيـاسـيـ وـمـحـورـهـ.

وـالـثـانـيـ،ـ أـنـ نـظـامـ دـمـشـقـ يـحـاـولـ الـلـعـبـ عـلـىـ التـنـاقـصـاتـ الـمـسـتـجـدـةـ فـيـ شـأـنـ الـحـلـ السـيـاسـيـ سـوـاءـ بـيـنـ رـوـسـيـاـ وـأـمـيرـكـاـ مـنـ جـهـةـ،ـ أـوـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ دـوـلـ «ـمـجـمـوعـةـ الـمـصـغـرـةـ»ـ الـتـيـ تـضـمـ إـلـىـ أـمـيرـكـاـ كـلـاـ مـنـ فـرـنـسـاـ وـبـرـيـطـانـيـاـ وـأـلـمـانـيـاـ وـالـسـعـودـيـةـ وـالـأـرـدـنـ.ـ لـكـنـ أـحـدـاـ لـاـ يـعـتـقـدـ أـنـ نـظـامـ دـمـشـقـ هـوـ الـذـيـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـسـمـ مـوـقـفـ رـوـسـيـاـ أـوـ يـؤـثـرـ فـيـهـ عـلـىـ نـحـوـ حـاسـمـ.ـ وـقـدـ ظـهـرـ عـدـمـ الـاـهـتـامـ بـمـاـ أـبـلـغـهـ وـلـيـدـ الـمـعـلـمـ إـلـىـ سـتـيفـانـ دـيـ مـيـسـتـورـاـ خـلـالـ الـقـمـةـ الـرـبـاعـيـةـ فـيـ إـسـطـنـبـولـ،ـ إـذـ لـمـ يـشـرـ إـلـيـهـ أـيـ مـنـ الـمـشـارـكـينـ،ـ باـسـتـثـنـاءـ فـلـادـيمـيرـ بـوـتـينـ الـذـيـ قـالـ أـنـهـ سـيـسـتـشـيـرـ الـنـظـامـ وـ«ـالـحـلـفـاءـ إـلـيـرـانـيـيـنـ»ـ الـذـيـنـ نـوـهـ بـ«ـأـهـمـيـةـ دـورـهـ»ـ فـيـ الـحـلـ.

يـرـيدـ الـنـظـامـ وـإـلـيـرـانـيـونـ حـالـيـاـ إـقـنـاعـ الـحـلـيفـ الـرـوـسـيـ بـأـنـ الـأـزـمـةـ دـخـلـتـ مـرـحـلـةـ جـدـيـدةـ تـتـطـلـبـ أـفـكـارـاـ جـدـيـدةـ،ـ مـنـهـاـ عـودـةـ إـلـىـ التـشـاـورـ الدـوـلـيـ لـلـتـوـصـلـ إـلـىـ تـصـوـرـ آخرـ مـشـتـرـكـ،ـ عـلـىـ غـرـارـ التـشـاـورـ الـذـيـ حـصـلـ فـيـ فـيـبـيـنـ وـأـفـضـيـ أـوـاـخـرـ عـامـ 2015ـ إـلـىـ الـقـرـارـ 2254ـ الـذـيـ أـدـىـ فـيـ نـظـرـهـمـ إـلـىـ إـضـعـافـ مـفـاهـيمـ «ـبـيـانـ جـنـيفـ»ـ لـلـحـلـ السـيـاسـيـ.ـ وـيـنـطـلـقـ الـنـظـامـ وـإـلـيـرـانـيـونـ فـيـ طـرـحـهـمـ هـذـاـ مـنـ جـمـلـةـ مـتـغـيـرـاتـ أـهـمـهـاـ أـنـ الـمـعـطـيـاتـ عـلـىـ الـأـرـضـ لـمـ تـعـدـ تـقـيـعـ لـلـأـطـرـافـ الـأـخـرـىـ فـرـضـ شـرـوـطـهـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـحـلـ السـيـاسـيـ،ـ وـمـنـهـاـ أـيـضـاـ أـنـ مـسـارـ آـسـتـانـةـ اـسـتـطـاعـ أـنـ يـغـيـرـ وـاقـعـ الـأـزـمـةـ وـاـكـتـسـبـ زـخـماـ فـيـ حـينـ أـنـ مـسـارـ جـنـيفـ أـنـهـكـ وـلـمـ يـعـدـ فـاعـلـاـ.ـ يـضـافـ إـلـىـ ذـلـكـ أـنـ مـوـقـفـ رـوـسـيـاـ مـرـشـحـ لـلـتـرـاجـعـ إـذـاـ تـمـكـنـتـ الـعـقـوبـاتـ الـأـمـيرـكـيـةـ مـنـ إـضـعـافـ إـلـيـرـانـ،ـ أـوـ إـذـاـ فـجـرـتـ تـلـكـ الـعـقـوبـاتـ مـوـاجـهـةـ أـمـيرـكـيـةــ إـلـيـرـانـيـةـ لـاـ بـدـ أـنـ تـنـعـكـسـ عـلـىـ الـوـضـعـ فـيـ سـوـرـيـةـ...ـ كـلـ ذـلـكـ يـتـطـلـبـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ دـمـشـقـ وـطـهـرـانـ إـمـاـ أـنـ تـبـادـرـ مـوـسـكـوـ إـلـىـ فـرـضـ حـلـ تـبـدوـ تـرـكـيـاـ أـكـثـرـ اـسـتـعـادـاـ لـلـانـخـرـاطـ فـيـهـ بـعـدـمـاـ أـغـرـيـتـ بـورـقـةـ إـدـلـبـ «ـالـمـوـقـةـ»ـ،ـ أـوـ فـيـ أـسـوـأـ الـأـحـوـالـ أـنـ تـضـغـطـ مـنـ أـجـلـ قـرـارـ دـوـلـيـ جـدـيدـ يـتـضـمـنـ تـرـاجـعـاتـ أـخـرـىـ عـنـ الـ2254ـ وـ«ـبـيـانـ جـنـيفـ»ـ.ـ وـمـنـ شـأـنـ ذـلـكـ أـنـ

يمنح روسيا وإيران والنظام وقتاً إضافياً لاستكمال إنتهاء الصراع على طريقتها. ربما تراود هذه الأفكار روسيا أو تجد فيها وسيلة للخروج من عجزها عن تحريك الحلول، لكن حساباتها الخاصة لا تدفعها باتجاه استفزاز الولايات المتحدة التي عادت فرسخَت وجودها في شمال شرق سوريا.

من جهة أخرى، كانت لافتاً تلك العبارة الصغيرة التي أطلقها رجب طيب أردوغان بعد القمة الرباعية، حين قال أن «انضمام» فرنسا وألمانيا إلى مسار آستانة سيجعل هذه الصيغة «أكثر مثالية». هل كان ذلك مجرد تمنٍ لأن تركيا أقرب إلى الأفكار الغربية بالنسبة إلى الحل السياسي ولأنها غير مرتاحة إلى فقدانها في «المجموعة المصغرة»، أم إنه عرض روسي يرمي إلى انتهاز الخلاف الأوروبي - الأميركي في شأن الاتفاق النووي والعقوبات المشددة على إيران. لم يكن واضحاً في مواقف الرئيس الفرنسي والمستشار الألمانية أن لديهما تقويمياً إيجابياً لصيغة آستانة أو أنهما قريبان من «الانضمام» إليه. ثم إن التساؤل الأول في هذا المجال يتناول مدى استعداد الولايات المتحدة للمشاركة في سيناريو كهذا يراد له أن يعيد الحل السياسي إلى المربع الأول، ويراد منه إعادة إشراك إيران في صيغة موسعة. من المستبعد، نظرياً، أن توافق واشنطن على تكرار اجتماعات فيينا والسعى إلى قرار دولي جديد حتى لو كانت هناك دول أوروبية لا تمانعه أو تريده تجربته، بل حتى لو عُرض عليها مثلاً قبول مشاركة إسرائيل، إذ تبقى واشنطن مندفعة (مع إسرائيل) في استراتيجية إضعاف إيران ونفوذها الإقليمي.

أكثر من عقدة تكبل خيارات ثلاثة آستانة، وكلها غير مرتبطة حُكماً بالمسألة السورية: روسيا وربطها تسهيل الحل في سوريا بصفقات لن تحصل عليها مع الدول الغربية، إيران وهاجسها باتت تعرف صعوبات الحفاظ على نفوذها كما تتصوره، تركيا وسعيها إلى هيمنة على أكراد الشمال مع علمها أن «الحليف» الأميركي هو الذي يحدّ طموحها أكثر مما يفعل خصومها. في المقابل عانت «المجموعة المصغرة» من علة مزمنة تتمثل في الخيارات المتقلبة للسياسة الأميركيّة حيال سوريا، لذلك تحاول دول المجموعة إبقاء حوارها مفتوحاً مع روسيا لكن من دون أوهام. لا شك في أن هذه التعارضات والتداخلات الدوليّة تتيح لنظام دمشق مواصلة العبث لحفظه على نفسه لا الحفاظ على سوريا.

المصادر:

الحياة اللندنية